(٩)

الصراع بين الوعى والإرهاب

تعتبر الثورات الشعبية التحريرية العفوية التى لا يسبقها تدبير أو تنظيم نقطة البداية فى طريق اكتساب الوعى الجمعى تدريجياً عبر مسار متعرج زمنياً يرتبط بمدى قدرة المجتمع على مقاومة المحاولات التى لا تتوقف، لمسخ الوعى الذى اكتسبته الشعوب من خلال الثورات. فالقوى المضادة للثورات لا تتوقف عن محاولاتها تشويه وطمس هذا الوعى الذى انبثق عن الثورات، والذى يصطدم بالاضطراب المترتب عليها. ولا شك أن هذا الاضطراب يؤثر سلباً فى بناء واستكمال عملية الوعى ويطيل أمدها. وهذه هى المعضلة التى تواجه الثورات العربية التى أنتجت مساراً تحريرياً مضطرباً انزلق إلى العنف بدرجات متفاوتة وأصبح فى متناول القوى المضادة للثورات أن تجد فى الإرهاب فرصة لطمس الوعى، بحيث أصبح الأمن مقدماً على ما عداه تحت شعار "لا صوت يعلو على صوت المعركة". وتبدو حالة مصر فى الذكرى الرابعة لثورة يناير بالغة الدلالة، خصوصاً تداعياتها فى أوساط الشباب الذى أصيبت قطاعاته الأوعى بصدمة وليس فقط بإحباط. بسبب نجاح القوى المضادة للثورة فى القفز على موجتها الثانية فى ٣٠ يونيو وتوجيهها فى اتجاه معاكس لأهداف ثورة يناير. فقد نشطت آلة طمس الوعى من خلال الإعلام، مستغلة الارتباك المجتمعى ومستثمرة الأخطاء الفادحة لجماعة الإخوان، حين وصلت إلى السلطة واصطدمت بالجميع. ورغم أن الاضطراب الذى تصاعد وتفاقم عقب الجولة الثانية فى ٣٠ يونيو عطل الأثر

المتوقع باتجاه انحسار الإرهاب الذى تنامى مجدداً متزامناً مع سعى القوى المضادة إلى تشويه الثورة وإنكار طابعها السلمى، مما أدى إلى إسقاط الخط الفاصل بين الثورات السلمية والعنف الإرهابى، وبين الاحتجاج المدنى والعمل المسلح. ومن الثابت أن هناك عدة أصوليات أفرزت الإرهاب، أبرزها الأصولية اليهودية، التى ترجع إلى ستة عقود، وأفرزت إسرائيل العلمانية وعدوانها اليومى على كل ما هو عربى إسلامى ومسيحى فى فلسطين التاريخية، ويعتبرها الغرب أصولية صديقة متحالفة مع مصالح الغرب، وأفرزت إرهاباً لا يهدد مصالح الغرب بل يدعم نفوذه، وأصولية سنية وشيعية انفجرت من واقع ملئ بالفقر والفساد واستبداد الحكام العرب وشيوع النفاق والازدواجية فى التعامل الدولى ويجرى التعسف معها واعتبارها إرهاباً يهدد الغرب ومصالحه. ولا شك أن أبرز إنجاز حققته الثورات العربية أنها اتاحت للجموع الشعبية إدراك أن طغيان الحكام وفسادهم وتبعيتهم للغرب وإهدارهم للكرامة الإنسانية هو موطن الداء وأن تحرير المجتمعات العربية يبدأ بتنوير وتوعية شعوبها من خلال الثورات، فما لم يتعود الناس أن يفكروا بأنفسهم لأنفسهم (على حد قول الفيلسوف الألمانى عمانويل كانط) سيبقون كالدمى فى أيدى حكام جدد يحلون محل الطاغية المخلوع. هذا وتبرز المشكلة التى واجهت المجتمع المصرى فى ظل ثورة يوليو ١٩٥٢. عندما أثيرت قضية (أزمة المثقفين)، وها هى تواجهنا بذاتها بعد ثورة يناير وجولتها الثانية فى ٣٠ يونيو، فقد بادرت النخب المثقفة المعارضة إلى اعتزال لوضع السياسى القائم على قمة السلطة الجديدة، وذلك بسبب وطأة التناقض ما بين مسيرة حفظ الكيان الوطنى واستعادة التعافى الاقتصادى من جهة وبين مسار الحريات المدنية والسياسية للأفراد والجماعات من جهة أخرى، مما يهدد باتساع الفجوة بين المثقفين والسلطة. فالمثقف العربى يواجه الآن تحدياً مزدوجاً يعيش من خلاله بين شقى الرحى تتنازعه متطلبات الحفاظ على كيان الدولة وحمايتها من الإرهاب المتصاعد وبين السعى إلى

تحقيق أهداف الثورة بالعيش الكريم، على أساس من الحرية والعدالة والكرامة للمجتمع ككل.

كيف يوفق المثقف الثورى بين هذه المتناقضات، ونحن نعيش فى أعقاب ثورة شعبية أطاحت بنظام تسلطى فاسد وانتفاضة ثانية أطاحت بمشروع لإقامة نظام تسلطى بديل تحت شعار (الإسلام السياسى) كما أننا نعاصر أجواء عربية مضطربة تتساقط فى ظلها الكيانات المجتمعية ويتصاعد الإرهاب بأشكاله المختلفة. هل ينعزل المثقف الحقيقى المهوم بقضايا وطنه أو يعتزل وينزوى أم يصمد ويواصل دوره التاريخى فى نشر الوعى بين الجموع المتعطشة للتغيير؟ هذا هو السؤال والإجابة محسومة لصالح التغيير.